

جدة من خلال كتابات جارا الله بن فهد

« دراسة وتحقيق »

الدكتور حمود بن محمد النجيد بي

كلية العلوم الاجتماعية - قسم التاريخ

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

تمهيد

تتميز جُدة عما سواها من مدن الحجاز بأمرين أساسيين أولهما: ظهور التطورات السياسية فيها أكثر من غيرها من المدن الأخرى في الحجاز وذلك في أواخر العصر المملوكي وأوائل العصر العثماني وخصوصاً في الفترة التي عاشها المؤرخ جارا الله بن فهد. وثانيهما: ارتباط النظم الاقتصادية في الحجاز بها أكثر من ارتباطها بأي مدينة أخرى، خصوصاً تلك المتعلقة بالنواحي التجارية بصفتها ميناءً تجارياً.

وهذان الأمران يرتبطان أساساً بموقع جُدة كونها ثغر الحجاز الذي اكتسب أهمية دينية وسياسية واقتصادية واستراتيجية منذ أصبح الميناء الرئيس لمكة والحجاز، ومعها الحجاز في عصر الخليفة الثالث عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وهو منذ ذلك الوقت يكتسب باطراد أهمية ومكانة جعلته أهم موانئ وثغور البحر الأحمر، وأهم مراكز التجارية على الإطلاق، ففي هذا الثغر كانت تنظم تجارة الحجاز الواردة إليه عن طريق البحر، كما تنظم أيضاً الأسس الخاصة بالمكوس^(١)، المفروضة على التجارة الواردة إليها، وهي أيضاً فرضته التي ينزل فيها الحجيج القادمون عن طريق البحر إلى مكة من مختلف مناطق العالم الإسلامي.

وبصفتها مدينة ثغرية فهي تعد بوابة الحجاز للقادمين إليه عن طريق البحر من حجاج وتجار ومسافرين، وهي بهذا محط أنظار الطامعين والراغبين في بسط نفوذهم على إقليم الحجاز، وعن طريقها يأتي الولاة الذين يُسند إليهم نيابة الحجاز من قبل الدولة صاحبة السيادة في حكمها بل أصبحت مقراً لهؤلاء يديرون منها شؤون الإقليم ويشرفون على أوضاعه، وتبعاً لذلك فلا يمكن إغفال أهميتها العسكرية التي دفعت الحكام من داخل الإقليم ومن خارجه أن يجعلوها في مقدمة أولوياتهم لبسط نفوذهم عليها وعلى سائر جهات الإقليم^(٢)

ومن هذا كله تتضح أهمية جدة، فهي تقابل مكة في أهميتها مع اختلاف نوع الأهمية، فإذا كانت أهمية مكة ترتبط بالجوانب الدينية، فإن أهمية جدة ترتبط بالجوانب الاقتصادية والسياسية معاً.

لقد التفت إلى تلك الأهمية كثير من المؤرخين الذين أرخوا في التاريخ لإقليم الحجاز بمدنه المتعددة وبالذات مكة المكرمة والمدينة المنورة، وجدة والطائف، وتناولوا في مؤلفاتهم التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي لهذا الإقليم، واشتهرت مكة بالذات بمؤرخيها العظام ولاسيما في عصر الماليك الذي ظهر فيه عدد من المؤرخين الكبار من أبرزهم (تقي الدين القاسمي)^(٣) و(نجم الدين بن فهد)^(٤) و(عز الدين بن فهد)^(٥) حيث قدموا حشداً من مادة تاريخية لا مثيل لها في أي فترة سابقة أو لاحقة.

وإن كان ثمة مؤلفات في العهود العثمانية التالية، فإنها لم ترق إلى الدرجة التي بلغتها المؤلفات التي سبقتها من حيث الجهد والبحث والتنسيق.

ولكن ممن جمع بين العصرين المؤرخ (جار الله بن فهد)^(٦) الذي ظهر في أواخر العصر المملوكي وأوائل العثماني، والذي كان سخيّاً على غير العادة، فألف عدة كتب في تاريخ مكة وجدة والطائف وغيرها من مدن وقرى الحجاز^(٧) جعلته يقترب إلى حد كبير من مصاف المؤرخين المعروفين في العهد السابق.

كان من أبرز الكتب التي ألفها جارالله بن فهد كتابه الذي ركز فيه على ثلاث مدن هي مكة المكرمة وجدة والطائف، وقد لاحظ في كل من هذه المدن الخصوصيات المميزة لها، والتي تشكل مع خصوصيات المدن الأخرى في بلاد الحجاز صورة متكاملة بجوانبها الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية.

ولقد عُنُون ابن فهد كتابه بـ (حسن القرى بأودية أم القرى)، وهو كتاب مخطوط توجد منه نسخة مصورة في معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة تحمل الرقم (١٧٠) تاريخ، مأخوذة عن الأصل الموجود بمكتبة الأحقاف باليمن رقم (٩٨) مجاميع.

يوضح ابن فهد في مقدمة الكتاب - الذي أتم تأليفه في منتصف القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، وبالتحديد سنة ٩٤٧هـ/١٥٤١م الغرض من تأليفه وهو التاريخ لمدن الحجاز وقراها وأهم معالمها الرئيسة وما ورد في فضلها وأبرز أحداثها^(٨) وقد رتب ابن فهد حديثه عن تلك المدن والقرى على حروف المعجم لسبع وثلاثين قرية زار معظمها وعاصر أحداثها في فترة من أهم الفترات التاريخية التي عاشتها.

ومما ساعد ابن فهد في تأليف هذا الكتاب توافر معظم مادته قبل تأليفه، وبالذات تلك الخاصة بمدينتي جدة والطائف، فالمعروف أن ابن فهد قد ألف رسالتين إحداهما عن مدينة جده وسماها (رسالة في فضل جده وشيء من خبرها)^(٩)، والثانية عن مدينة الطائف وأسمها (نشر اللطائف في قطر الطائف)^(١٠)، ووجود هاتين الرسالتين مع ما يدخره ابن فهد من معلومات عن مكة المكرمة وقراها قد دفعه إلى تأليف هذا الكتاب.

إن أهمية هذا الكتاب لهذه الدراسة تأتي من احتوائه على رسالة ابن فهد الخاصة بجدة فهي رسالة قيمة جديرة بالنشر، حيث كانت مصدراً بل أصلاً لعدد من الرسائل التي ألفت عن جدة فيما بعد، ونظراً لنشر تلك الرسائل ودراستها من قبل عدد من الباحثين فقد كان من الأهمية نشر المصدر الذي استقت منه تلك المصادر معظم مادتها العلمية عن مدينة جدة، إضافة إلى أهمية المعلومات التي أوردها ابن فهد عن جدة والتي تستقي أهميتها من معاصرتة ومشاهدته ومشاركته لكثير من الجوانب التي أوردها في رسالته.

فضل جدّه وشيء من خبرها^(١١) الدراسة

أولاً : ترجمة ابن فهد :

هو أبو الفضل جار الله محمد بن عبدالعزيز بن عمر بن محمد الهاشمي المكي الشافعي ، يعود نسبه إلى علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ولد بمكة المكرمة في العشرين من رجب ٨٩١هـ (الموافق للواحد والعشرين من شهر يوليو ١٤٨٦م) وعاش ثلاثاً وستين سنة حيث كانت وفاته في عام ٩٥٤هـ (الموافق ١٥٤٧م)^(١٢).

ولد ابن فهد في أسرة اهتمت اهتماماً كبيراً بالعلم وخدمته ، فقدمت على مدى أربعة قرون ما يزيد على ثلاثين عالماً خلفوا لنا مؤلفات قيمة عن الحياة العلمية والسياسية والاجتماعية في إقليم الحجاز بعامة ومكة المكرمة بخاصة^(١٣).

لقد عاش مؤرخنا ومحدثنا بصفته أحد العلماء البارزين فترة من أهم فترات تاريخنا الإسلامي ، وهي الفترة التي شهدت سقوط دولة المماليك وحلول العثمانيين محلهم في الإشراف على شؤون الحرمين الشريفين ، وزعامة العالم الإسلامي ، وعاصر تلك الأحداث بل شهداها وشارك في بعض أحداثها ، وكان عالماً من أعلامها الذين نبغوا في الحياة الفكرية والعلمية خلالها وأسهموا في تنشيطها وازدهارها رغم جسامه الأحداث التي شهدتها المنطقة في تلك الفترة .

لقد خلف لنا جار الله بن فهد تراثاً مهماً عن إقليم الحجاز تمثل في عدد من المؤلفات التي تناول خلالها جوانب سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية عاشها الإقليم بمدنه المتعددة فكان لتلك الإسهامات بعداً تاريخياً وعمقاً علمياً وأصالة أنبأت عن عقلية نابغة وفكر نشط لم يحظ بهما كثير من أعلام عصره^(١٤).

ولقد كان لتربيته ونشأته تأثير كبير على هذا التوجه لدى ابن فهد ، فقد وُجه منذ صغره توجيهاً علمياً صحيحاً ، وكان لوالده فضل كبير في تنشئته تنشئة علمية سليمة وتعويده منذ صغره على حضور مجالس العلماء الأمر الذي ساعد كثيراً على نمو ونبوغ

شخصيته العلمية^(١٥)؛ ذلك النبوغ الذي جعله يرتحل طلباً للعلم إلى عدد من المراكز الحضارية في تلك الفترة، فارتحل إلى القاهرة وبلاد الشام واستنبول واليمن، وكان قبل ذلك قد ارتحل إلى المدينة المنورة وجدة والطائف^(١٦)، وتلمذ على يد عدد كبير من علمائها وفقائها، وأخذ عنهم علوم الحديث والفقه وأصوله وعلم النحو والتراجم وغيرها من العلوم التي جعلت منه عالماً وفقياً ومحدثاً ومؤرخاً^(١٧).

إن إعداد جبار الله بن فهد نفسه جعله يسمو إلى مرتبة المؤرخين الكبار، فكان على علم بكثير مما كتبه مؤرخو مكة العظام وغيرهم، ويرد في ثنايا كتاباته ما يدل على اطلاعه واستفادته من عدد من المؤرخين السابقين له أمثال الذهبي^(١٨) وكتابه تاريخ الإسلام، وابن خلدون^(١٩) وتاريخه العبروديوان المبتدأ والخبر، والقلقشندي^(٢٠) وكتابه نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، وتقي الدين الفاسي^(٢١) وكتابه شفاء الغرام وكذا كتابه العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، والمقرئزي^(٢٢) وكتابه إمتاع الأسماع، ونجم الدين بن فهد^(٢٣) وكتابه إتحاف الوري، وعز الدين بن فهد^(٢٤) وكتابه غاية المرام بأخبار البلد الحرام، وبلوغ القرى بأخبار أم القرى؛ كما رجع إلى طائفة من كتابات السخاوي^(٢٥) وغيره من علماء عصره^(٢٦).

ثانياً : تحليل مادة الرسالة ومنهج ابن فهد في كتابتها :

كان ابن فهد دقيقاً في عنوان رسالته التي ألفها عن جُدة عندما قال : «ذكر شيء من فضل جدة وشيء من خبرها» وفعلاً، فقد أورد معلومات مركزة وموجزة عن فضل جدة، إضافة إلى إيراد معلومات وصفية موجزة عن مساجدها وسورها، وأيضاً معلومات يسيرة موجزة عن تاريخها ونشأتها.

لقد ضمّن ابن فهد مادته الخاصة بتاريخ جُده قبل الإسلام جانباً يسيراً من الحوادث البعيدة عن الصحة والتي تجري مجرى الخرافات مقتدياً في ذلك بالمؤرخين السابقين، ويبدو أنه ذكرها بصفتها قصصاً شائعة، فهو تارة يسندّها إلى شيوخه وتارة أخرى إلى علماء التاريخ والسير، وهي مما كان للإسرائيليات أثر بارز في تدوينها، ومن ذلك قوله «إن قبر حواء أم البشر بجدة وأنه كان بجدة موضع فيه قبة عتيقة كانت منزلاً لحواء وأنه لا مانع أن تكون نزلت فيه ودفنت به»^(٢٧)

كما أنه يرجع سبب تسمية جدة بهذا الاسم إلى نزول حواء بها، وكونها دفنت بها فهي جَدَّة جميع من في العالم^(٢٨)، وقد فعل ابن فهد ذلك أيضاً عندما كتب عن أسوار جدة قبل الإسلام، فإنه أخضع تاريخها القديم لروايات السابقين دون تمحيص، فذكر أن سورها يرجع إلى عهود الفرس، وأنهم الذين قاموا ببناء جدة وسورها^(٢٩).

أما بالنسبة لكتابته عن تاريخ جُدَّة المعاصر له فإنه أخضعه لمشاهدته، وهي السمّة التي تميز منهجه في هذا الجانب، وأن ما يكتبه فيه ليس نقلاً عن مصادره في كثير من الأحيان، فإذا كانت كتابته عن أسوار جدة قديماً اعتمدت على الروايات التي قيلت بشأنها، فإن كتابته عن أسوارها المعاصرة اعتمدت على المشاهدة حيث أشار إلى مساهدته لبناء سور جدة في أوائل القرن العاشر الهجري، وذلك أن الذي أمر بعمارته في زمنه هو السلطان المملوكي الأشرف قانصوه الغوري^(٣٠) سنة ٩١٢هـ/١٥٠٦م.

لقد أبان ابن فهد في وصفه لهذا السور عن منهج شمولي واضح في طريقة عرضه للمعلومات حيث قدم لنا وصفاً دقيقاً عن أبعاد السور كما شاهده، وكذلك الأبراج التي شيدت لتحصينه بهدف الدفاع عن الثغر إذا ما تعرض للغزو.

ولقد تابع ابن فهد ما حدث من زيادة في بناء السور حتى عصره معتمداً في منهجه على مشاهداته الخاصة لا على مصادره، فذكر أن الزيادة في هذا السور حدثت مراراً عديدة منها ما قام به خايربك^(٣١) المعمار الجركسي في سنة ٩١٧هـ/١٥١١م حين شيد برجاً سابعاً وسط البحر وأوصله بسور جدة من جهة اليمن، كما أشار إلى ما قام به حسين الكردي^(٣٢) نائب جدة من شحن هذه الأبراج بالمدافع الكبار وآلات الحرب وأن ذلك كان له أكبر الأثر في فشل حملة البرتغاليين على جدة سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م^(٣٣).

وهكذا أبان ابن فهد في منهجه المعتمد على الرؤية والمشاهدة، أن من أهم الأسباب التي دعت إلى بناء هذا السور حماية جدة من الغزو البرتغالي الذي كان ينوي ضرب مدينة جدة وتعطيل الملاحة فيها وغلق البحر الأحمر باتجاه الشمال نحو السويس القاعدة البحرية للأسطول المملوكي.

ويبدو من منهجه في عرض المعلومات العسكرية الخاصة بهذا السور وما به من

تجهيزات حربية واستعدادات ، أنه كان على علم بالأحداث التي كانت تحيط بالمنطقة وقتئذ ، وهي السمة التي تبرز ملامحه المنهجية في عرضه لتلك الأحداث .

وبعد أن أنهى حديثه عن بعض الاستحكامات العسكرية التي أقيمت في مواجهة البرتغاليين تناول وبالمناهج نفسه المراحل الخاصة بتحصيل الرسوم على المراكب المحملة بالبضائع الواصلة إلى ميناء جدة من بلاد الهند وغيرها ، والإجراءات التي كان يتبعها نائب جدة وناظرها ومعهما طائفة من المباشرين في تحصيل هذه المكوس ، وكذلك ما يقوم به نواب صاحب مكة في جدة من تحصيل المكوس من السفن الواصلة إلى جدة من اليمن والصعيد وغيرها .

وبالمناهج نفسه المبني على المشاهدة والرؤية كتب ابن فهد عن بعض مساجد جدة ، فتناول المسجد الذي يعرف في عهده بالجامع العتيق ، وما حدث من تجديد في قبلته وعماراته من جانب سلاطين المماليك الجراكسة ، وأن آخر من عمر فيه منهم من المعاصرين لابن فهد هو الملك الأشرف قانصوه الغوري ، ثم حدثت تجديدات أخرى بالمسجد في منتصف القرن العاشر الهجري على يد العثمانيين ، وثمة مسجد آخر بجدة كتب عنه ابن فهد كتابة المعاصر والمشاهد ، فحدد موقعه بأنه على باب الفرضة السلطانية وتقام فيه الجمعة وقت قدوم السفن من الهند إلى ميناء جدة محملة بالبضائع الشرقية ، وهي الأيام المعروفة بالموسم الهندي .

هذا وما تجدر الإشارة إليه أن بدايات النقل وانتهائه عند بعض المؤرخين ومنهم ابن فهد تشكل منزلاً للدارسين في تراثنا العربي الإسلامي فمن خلال منهج ابن فهد في النقل ، فقد أورد بعض النصوص والعبارات بخصوص بعض مساجد جدة على أنها منسوبة إلى مصدر بعينه يترجح معه - للوهلة الأولى - أن النص غير مكمل من مصدر آخر أو أنه ليس مشعباً بنص من مصدر آخر .

ومن الأمثلة الموضحة لذلك ما أورده ابن فهد بخصوص المسجدين اللذين ينسبان لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - من قوله : « وذكر ابن جبير أن بها مسجدين ينسبان لعمر بن الخطاب ، وأن أحدهما يقال له مسجد الأبنوس لساريتين فيه من خشب الأبنوس ، وهذا المسجد معروف إلى الآن ، والمسجد الآخر غير معروف ، ولعله

المسجد الذي تقام فيه الجمعة بجدة، وهو من عمارة الملك المظفر صاحب اليمن على ما بلغني».

النقل هكذا منسوب لابن جبير مع أن المقتبس من ابن جبير ينتهي عند عبارة «خشب الأبنوس»، ويتبعها اقتباس جديد من منقولات الفاسي يبدأ بقوله: «وهذا المسجد معروف إلى الآن»، وكلمة «بلغني» في هذا النص منصرفة إلى الفاسي، يضاف إلى ذلك أن عمارة المسجد في عهد المظفر صاحب اليمن كانت سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م، وابن جبير توفي سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٧م، ومنشأ ذلك أن جار الله بن فهد اقتبس هذا النص من الفاسي، وكان الفاسي قد وصل كلامه بكلام ابن جبير فاقتسبه ابن فهد كما هو على حاله.

ومهما كانت الحال، فإن هذا لا يقلل من منهج ابن فهد في كونه مؤرخاً اعتمد في إيراد كثير من معلوماته على المشاهدة والمعاصرة^(٣٦)، ويكفي أن جار الله بن فهد يرى أن التاريخ يعتمد أساساً في كتابته على السماع والمشاهدة^(٣٥)، حتى أنه كان يسجل ملاحظاته اليومية عن الحياة المكية منذ عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، ويفضل هذه الطريقة المثلث ساق من حولياته - التي تضمنها كتابه نيل المنى - حشداً من الأخبار ذات الصلة بمكة حتى أشبه بذلك نجم الدين بن فهد، وعز الدين بن فهد، وهما مؤرخان مكيان عاشا في أواخر سلطنة المماليك ونقلوا في يومياتهما كل ما يتعلق بالحياة المكية وقتذاك.

ثم هو مثلها أيضاً ممن صنع من التراجم التي تتناول الصفات المميزة للمترجم عنه عملاً تاريخياً يكمل الخبر.

ثم هو كذلك من نفس المدرسة التاريخية الإسلامية التي ترى أن الشعر^(٣٦) وحتى السجع^(٣٧) أحياناً هو من أسلوب كتابة التاريخ.

إن ابن فهد يحتل مكانة خاصة بين مؤرخي المسلمين عامة ومؤرخي مكة بصفة خاصة، فهو من نتاج الأصالة التاريخية لمدرسة التاريخ في مكة المكرمة والتي كان لها تأثيرها الواضح على المؤرخين الذين أتوا بعد ابن فهد حيث تجلّى أثر كتاباته التاريخية فيمن جاء بعده من المؤرخين الذين حملوا راية التدوين فيما يختص بتاريخ مكة المكرمة وجدة والطائف بعد أن أسلمها لهم جار الله بن فهد واستفادوا منه نقلاً واقتباساً ومنهجاً^(٣٨).

النص والتعليقات

(فضل جُدة وشيء من خبرها)

ذكر شيء من فضل جدة ساحل مكة وشيء من خبرها كما أعده ولخصه^(٣٩) قال الفاكهي^(٤٠) بسنده إلى عمرو بن شعيب^(٤١) عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مكة رباط وجدة جهاد»^(٤٢).

وعن ابن جريج^(٤٣) قال: سمعت عطاء^(٤٤) يقول: إنها جدة خزانة مكة، وإن ما يؤتى به إلى مكة لا يخرج به منها، وعن ابن جريج قال: «مكة رباط وجدة جهاد». وقال ابن جريج: «إني لأرجو أن يكون فضل مرابط جدة على سائر المرابطين كفضل مكة على سائر البلدان».

وعن ضوء بن فجر^(٤٥)، قال: كنت جالساً مع عبّاد بن كثير^(٤٦) في المسجد الحرام، فقلت: الحمد لله الذي جعلنا في أفضل المجالس وأشرفها، قال: وأين أنت [من] جدة^(٤٧)!! الصلاة فيها [بسبعة عشر ألف صلاة]،^(٤٨) والدرهم بمائة ألف، وأعمالها بقدر ذلك، يغفر للناظر فيها مد البصر، قال: قلت رحمك الله مما يلي البحر؟ قال: مما يلي البحر.^(٤٩)

ثم قال الفاكهي بسنده إلى عبدالله بن سعيد بن قنديل،^(٥٠) قال: حدثنا فرقد السبخي^(٥١) بجدة قال: إني رجل أقرأ هذه الكتب،^(٥٢) وإني لأجد فيما أنزل الله عز وجل من كتبه جدة أو جديدة يكون بها قتلى وشهداء، (لا شهيد)^(٥٣) يومئذ على ظهر الأرض أفضل منهم، إلى غير هذا من فضلها والفوائد في تاريخها.

وقال الشريف الفاسي فيها: وجُدة هي الآن ساحل مكة الأعظم، وعثمان بن عفان - رضي الله عنه - أول من جعلها ساحلاً^(٥٤) بعد أن شاور الناس في ذلك لما سئل [فيه]^(٥٥) في سنة ست وعشرين، وكانت الشعبية^(٥٦) ساحل مكة قبل ذلك.^(٥٧)

وذكر ابن جبير^(٥٨) أنه رأى بجدة أثر سور محرق بها، وذكر أن بها مسجدين ينسبان لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وأن أحدهما يقال له مسجد الأبنوس، لساريتين فيه من خشب الأبنوس.^(٥٩)

وهذا المسجد معروف إلى الآن،^(٦٦) والمسجد الآخر غير معروف ولعله - والله أعلم - المسجد الذي تقام فيه الجمعة بجدة .

وهو من عمارة الملك المظفر^(٦٧) صاحب اليمن على ما بلغني .^(٦٨)

أقول : ويعرف الآن^(٦٩) بالجامع العتيق، وقد تجدد في قبلته أماكن متعددة في زمن الجراكسة، وآخر من عمّر فيه منهم الملك الأشرف قانصوه الغوري، ثم في زمن سلاطين الزمان صفوة الصفوة من ملوك بني عثمان أدام الله دولتهم مدى الأزمان، عمروا فيها كثيراً من مؤخرة ومقدمة وذلك بفضل الله وكرمه، وتقام فيه الجمعة، وكذا في المسجد المتجدد آخر القرن التاسع في البحر من الشام ويعرف بالخواجه^(٧٠) علي الشيرازي العجمي .^(٧١)

وفي أيام الموسم الهندي^(٧٢) تقام الجمعة في مسجد ثالث على باب الفرضة^(٧٣) يصلي فيه نائب جدة،^(٧٤) وفيها غيرها من المساجد كمسجد الأبنوس لا جمعة فيه، بل يصلي فيه كل عابد .

وقال الشريف تقي الدين الفاسي^(٧٥) عقب كلامه الماضي «وروى الفاكهي بسنده إلى ابن عباس - رضي الله عنهما - أن قبر حواء أم البشر بجدة انتهى باختصار .

وذكر ابن جبير أيضاً : أنه كان بجدة موضع فيه قبة مشيدة عتيقة، يذكر أنها منزل حواء أم البشر، زوج آدم عليهما السلام .^(٧٦)

ولعل هذا الموضع هو الذي يقال له قبر حواء، هو مكان مشهور بجدة، إذ لا مانع أن يكون نزلت فيه ودفنت به والله أعلم،^(٧٧) واستبعد أن يكون قبر حواء بالموضع المشار إليه لكون ابن جبير لم يذكره، وما ذاك إلا لخفائه عليه، وهو فيما بعد رحلته من الزمن أخفى، والله أعلم، انتهى كلام الفاسي رحمه الله تعالى .^(٧٨)

يقول مؤلفه - غفر الله زلته -، ووفقه وثبته : وقد رأيت جدي الحافظ نجم الدين ابن عمر بن فهد المكي - رحمه الله تعالى -، ذكر في (مسودة بلدانياته) : أن سبب تسميتها بجدة لأنه نزلتها أم البشر حواء ودفنت بها، فهي جدة جميع من في العالم .^(٧٩)

وقال الحافظ (مجد الدين)^(٨٠) بن الأثير في النهاية : الجدة بالضم شاطئ النهر،

والجدة أيضاً، وبه سميت المدينة عند مكة : جدة، انتهى. (٧٥)

وبها آثار قديمة تدل على قدم اختطاطها، وأنها كانت مدينة كبيرة، ويذكر أنها كانت من زمن الفرس، [وسكنها سلمان الفارسي وأهله] (٧٦) لأنهم كانوا قوماً تجاراً، وبنوها (٧٧) ويقال إنها من بناءة (يزدجرد بن برويز بن يزدجرد بن شهریار بن بهرام). (٧٨)

والمشهور (٧٩) أنها من بنيان الفرس، (٨٠) ولما بنوها بنوا سورها أتقن بناء فجعلوا عرض الحائط عشرة أشبار أحكموه، وجعلوا له أربعة أبواب : باب الدومة، (٨١) وباب المدبغة، (٨٢) وكان عليه حجر أخضر فيه طلسم إذا سرق في البلاد سارق وُجد بالغداة اسم السارق مكتوباً في الحجر، (٨٣) وباب مكة، (٨٤) وباب الفرضة مما يلي البحر، وحفروا حول البلد خندقاً عظيماً في الوسع والعمق، وكان يدور ماء البحر حول البلد، ويرجع ما يفضل منه إلى البحر، والبلد يومئذ شبه جزيرة في وسط لجج البحر، فلما حصن الفرس البلد غاية التحصين، خافوا من ضيعة الماء فبنوا ثمانية وستين صهريجاً داخل البلد، وبنوا بظاهرها مثلها، ويقال : ثلاثمائة داخلها ومثل ذلك خارجها.

ثم إن الفرس خرجوا منها فخربت وأندرت واندثرت، وبقيت الآثار خاوية على عروشها حتى ملكها الأعراب في دولة الأمير داود بن هاشم الحسيني. (٨٥) وبخارجها، (٨٦) الآن مصانع قديمة بها أجباب (٨٧) منقورة في الحجر الصلب يتصل بعضها ببعض، تفوت الإحصاء كثيرة.

وفي البلد دور كثيرة بناؤها من الحجر الكاشور (٨٨) ويجتمع فيها من أطراف العالم للربح المشكور والمتجر المعمور، من ديار مصر والمغرب والهند واليمن والعجم، خصوصاً في قيام موسم الهندي المتجدد في هذه السنين - يعني في وسط القرن التاسع الهجري - فيباع فيه من البضائع المجلوبة والأمتعة المنتخبة ما لا يحصى إلا الله تعالى.

وبها نواب من صاحب مكة يقبضون متحصلها، وفي أيام الموسم الهندي يصل لها أمير (٨٩) من صاحب مصر يقبض لوازمها ومكسوها. (٩٠)

وفيها جلاب (٩١) كثيرة تنصرف إلى جهات شهيرة، ويصاد بها السمك الكثير على أجناس مختلفة وأنواع متعددة، انتهى كلام جدي - رحمه الله تعالى -

وقد ذكر شيخنا الحافظ العمدة الشمسي محمد السخاوي في (بلدانياته) غالب ما تقدم وغيره مما لا نطول به، بل ألف فيها شيخنا الإمام الحجة قاضي القضاة بالحرمين الشريفين نجم الدين محمد بن يعقوب المالكي^(١٢) - رحمه الله تعالى - تأليفاً سماه (تنسّم الزهر المأنوس عن ثغر جدة المحروس)، ولم أقف عليه.

لكنني شاهدت سورها المعمور الآن عليها، وكان أمر بعمارتها في زمننا ملك الديار المصري الأشرف قانصوي الغوري آخر ملوك الجراكسة^(١٣) [الذي]^(١٤) كان السبب في انقراض دولتهم - على يد نائبها الحسامي حسين الكردي في سنة اثنتي عشرة وتسعمائة، وكانت عمارته في أسرع مدة^(١٥) وهو مربع محيط بالبلد من جوانبها الثلاثة خلا الجهة البحرية.

وطوله من جهة اليمن ثمانمائة ذراع بذراع العمل^(١٦) المستعمل الآن وهو ذراع وثلث بذراع الحديد المصري.

ومن جهة الشرق التي تقابل القبلة إلى جهة الباب البياني^(١٧) ستائة ذراع بالعمل^(١٨) ومن جهة الباب الشمالي^(١٩) إلى ركنه كذلك، وبين كل من البابين عشرون ذراعاً بالعمل، ومن جهة الشام ثمانمائة ذراع أيضاً، وفي كل جهة برجين: برج في البحر من جهة اليمن، وبرج محاذية من جهة القبلة، وبرج على يمين الخارج من الباب البياني وبرج على يسار الخارج من الباب الشامي، وبرج من جهة الشام، وبرج محاذية من جهة البحر أيضاً، فجعلتها ستة أبراج، وارتفاع كل برج منها عن الأرض خمسة عشر ذراعاً بالعمل وذلك بالشرارييف فوقها وطول كل شُرَافَة^(٢٠) ذراعان وعرضها ذراع وسدس، وسمكها ذراع، وبين كل شُرَافَة إلى الأخرى ذراع وسدس، ولكل من الأبراج عشرون شُرَافَة كل شُرَافَة منها قطعة حجر واحد منحوت، وعرض جدار بناء السور ثلاثة أذرع بالعمل وارتفاعه في العلو عشرة أذرع.^(٢١)

[وطول]^(٢٢) البلد من جهة البحر ألف وأربعمائة ذراع، وفي صدر البرجين القبليين جدار هائل، وبه مرامي للبارود لمن يقصد الحرب لها.

وارتفاع [كل باب]^(٢٣) تسعة أذرع بالعمل، وفي علو كل باب شُرَافَة وطاقات ومرامي للحرب، وهو من خشب بحري مصفح بالحديد، سمكه ثلث ذراع بالعمل،

كما شاهدت جميع ذلك وحررته من أصل معتمد لكل سالك ، والله الحمد هنالك .

ثم بعد التاريخ الماضي زيد في سور جدة مراراً عدة منها في سنة سبع عشرة وتسعمائة
عمر باش مكة^(١١٤) خاير بك المعمار الجركسي برجاً سابعاً في وسط البحر وأوصل به سور
جدة من جهة اليمن .

ثم في سنة عشرين وتسعمائة عمر نائب جدة الحسامي حسين الكردي برجاً ثامناً
في جهة الشام ، وجعل مما يليه باباً كبيراً لجهة البر ، وعمر الفرضة القديمة مع ما حولها
من البيوت ، وحوطها بسور وأبراج مشتملة على عدة مساكن ، وحوشين كبيرين
(تنحل)^(١١٥) فيها الحمول الواصلة من البحر في المراكب الهندية وغيرها ، وتعرض بين
دكتين كبيرتين يجلس عليهما نائب جدة وناظرها والمباشرون فيها ،^(١١٦) يأخذون
(عش)^(١١٧) الواصل إليها من الهند وغيره لسلطان الديار المصرية .^(١١٨)

وحرس الأبراج وشحنها بآلات الحرب من المدافع الكبار والسبعيات الصغار
وحصل بها النفع عند ظهور الفرنج^(١١٩) المخذولين في سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة
وزاد تحصينها مع بناء عدة أبراج في سورها أيام دولة ملوك الزمان صفوة الصفوة من
ملوك بني عثمان ، شيد الله بهم الأركان وأدام دولتهم مدى الأزمان .

وكان فيها من قبل الآن لصاحب مكة البهية ، فرضة ثانية مرضية يأخذ نوابه فيها
متحصلة من العدني^(١٢٠) والجلاب الطلقة الواصلة إليها من اليمن والصعيد وغيرها من
الحب والخير والمزيد ، فالله تعالى يبارك فيها ، ويكثر من الواصل إليها .

وقد أطلت الكلام في هذا النظام وبسطته كثيراً في بلدانياتي المسماة (الفرائد
البهيات في فوائد البلدانيات) ،^(١٢١) فليراجعه طالبه في أصله ، والله أعلم .

الهوامش

(١) المكوس، جمع مكس، وهو لغة الجبابة، مكسه يمكسه مكساً، وفي الاصطلاح دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع في الأسواق الجاهلية، ويقال للعشار، صاحب المكس، وهو الذي ينتقص الثمن في البيعة (ابن منظور، لسان العرب، ج٨، ص١٠٥، مادة مكس؛ المقرئ، الخطط، ج٢، ص١٢١) والملاحظ أن مصطلح المكوس عرف في مصر منذ الدولة الفاطمية وكانت قبل ذلك معروفة بالأموال الهلالية (التي تتم جبايتها نهاية كل شهر) والمرجح أن هذا اللفظ أصبح فيما بعد مصطلحاً على كل مبلغ يؤخذ من جهة من الجهات المتصلة بالتجارة وعمليات البيع والشراء.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن أهمية جدة فضلاً عنظر: على بن حسين سليمان الناصر، النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية أواخر العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، ط الأولى، القاهرة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م فائق بكر الصواف، مصطفى محمد رمضان، أهمية ثغر جده في النصف الأول من القرن العاشر الهجري، الدارة، العدد الثاني، السنة السادسة ربيع الأول ١٤٠١هـ/ يناير ١٩٨١م ص١٩٩، ٢٢٥؛ محمد أمين صالح، تجارة البحر الأحمر في عصر المماليك الجراكسة، مجلة الدارة - نفس العدد المذكور - ص١٢٥ - ١٤٦؛ نوال سراج ششه، جده في مطلع القرن العاشر الهجري، مكة المكرمة، ١٩٨٦م.

(٣) الحافظ محمد بن أحمد بن علي القاسمي المكي تقي الدين أبو الطيب قاضي المالكية بمكة ولد بها في ربيع الأول ٧٧٥هـ/ أغسطس ١٣٧٢هـ ونشأ بها وبالمدينة المنورة، مع كبار مؤرخي مكة المكرمة كانت له رحلات علمية إلى مصر وبلاد الشام واليمن، وسمع عن عدد كبير من العلماء وأجازوه بلغ عددهم نحو خمسمائة عالم أهتم بالحديث اهتماماً كبيراً إلى جانب علوم أخرى أبرزها التاريخ. له عدة مصنفات أهمها شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين وغيرهما، توفي في شوال سنة ٨٣٢هـ/ يوليو ١٤٢٩م.

(السخاوي، الضوء اللامع ١٨/٧ وما بعدها؛ الشوكاني، البدر الطالع ١١٤/٢؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ١٩٨/٧، السيوطي، طبقات الحفاظ ص٢٩١، ٣٧٧).

(٤) النجم ابن فهد أبو القاسم محمد المدعو عمر بن محمد بن محمد، ولد نهاية جمادى الآخرة سنة ٨١٢هـ/ ٧ نوفمبر ١٤٠٩م بمكة المكرمة نشأ نشأة عظيمة وحفظ القرآن الكريم وتلاوته ودرس الحديث كانت له صلوات ولقاءات مع شيوخ مكة ودرس في حلقاتهم، كان لوالده الفضل الكبير في تكوينه العلمي، أجازته عدد كبير من شيوخ الحرمين وبلاد الشام ومصر وتعلم على يديه عدد كبير من العلماء له مؤلفات وتصنيفات في الحديث والتاريخ والتراجم. توفي في السابع من رمضان سنة ٨٨٥هـ/ التاسع من نوفمبر ١٤٨٠م.

(معجم الشيوخ دراسة المحقق، ص١٤، ١٨؛ السخاوي، الضوء اللامع، ١٢٩/٦؛ الشوكاني، البدر الطالع، ٥١٢/١).

(٥) العز بن فهد - عز الدين - أبو الخير وأبوفارس عبدالعزيز بن عمر بن محمد بن فهد الشيخ الإمام الحافظ، ولد ليلة السبت السادس والعشرين من شوال ٨٥٠هـ/ ١٣ يناير ١٤٤٧م بمكة المكرمة حفظ القرآن الكريم والأربعين النووية وألفية ابن مالك وغير ذلك من الأصول حفظها على والده الذي أجازته، رحل في طلب العلم إلى المدينة

ومصر وبلاد الشام وأجازه عدد من علمائها وأبرزهم الحافظ ابن حجر العسقلاني والسخاوي والسباطي، لازم بمكة عالمها البرهان بن ظهيرة وأخذ عنه الفقه والتفسير، كما أخذ عن غيره النحو والمنطق، برع في الحديث وتميز به، له مصنفات عديدة في فنون شتى؛ توفي سنة ٩٢١هـ/١٥١٦م.

(السخاوي الضوء اللامع، ٢/٢٢٤؛ الغزي الكواكب السائرة ١/٢٣٨؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ١٠٠/٨).

(٦) فضلاً أنظر ترجمته ص (٦).

(٧) منها على سبيل المثال: الاتعاظ لما ورد في سوق عكاظ؛ اقتطاف النور مما ورد في جبل ثور؛ بهجة الزمان بعمارة الحرمين لمولك آل عثمان؛ تحفة اللطائف في فضائل الخبر ابن عباس ووج والطائف؛ والتحفة اللطيفة في بناء المسجد الحرام والكعبة الشريفة، ونشر اللطائف في قطر الطائف؛ ونيل المنى بذيل بلوغ القرى بذيل تحاف الوري.

(٨) أوضح ابن فهد ذلك بقوله: «هذا تأليف لطيف جعلته بياناً لذكر الأودية التي أنعم الله بها على العابد والطائف وأضهر لهم فيها المنافع واللطائف منها الثمار والفاكهة التي في الأودية والطائف، يتمتع بها من حج وطاف بالبيت الشريف من البرية» (ورقه ٢ - ٣) ثم قال: «ولم أجد من سبقني لذكره من المؤرخين في بلد الله الأمين. إلا أن شيخنا التقي الفاسي تعرض لذكر بعض الأودية في مؤلفاته فأنقل كلامه فيها وما اطلعت عليه من فوائدها» (ورقه ٣).

(٩) يوجد منها نسخة بهذا العنوان في مكتبة الأوقاف العامة في بغداد تحت رقم (٤٧٩٦/٣) مجاميع، ونسخة أخرى في المكتبة الأهلية ببرلين تحت رقم (6063. spr, 490) بعنوان (هذه رسالة للشيخ جار الله فهد العلوي الهاشمي في فضل جدة وأحوالها وقربها من مكة)، وجاء في بروكلمان (الذيل ٢/٥١٦) و(الذيل ٢/٥٣٨) كما جاء في النور السافر (ص ٢٤١) وأيضاً في ذيل طبقات الحفاظ (ص ٣٨٣) أن لابن فهد رسالة عنوانها (السلاح والعدة في فضائل بندر جده). وما تجدر الإشارة إليه أن هذه الرسالة لابن فهد كانت أصلاً لرسالتين ألفتا عن جده واعتمدنا اعتياداً مباشراً بل نقلنا حرفياً المعلومات التي أوردها ابن فهد في رسالته عن جده وهاتين الرسالتين هما:

- ١ - السلاح والعدة في تاريخ بندر جده لابن فرج (المتوفى سنة ١٠١٠هـ/١٦٠١م).
- ٢ - الجواهر المعدة في فضائل جده للحضراوي (المتوفى سنة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م). (فضلاً أنظر قائمة مصادر هذه الدراسة).

(١٠) يشير ابن فهد إلى أن تأليفه لهذه الرسالة كان عام ٩١٦هـ/١٥١٠م (تحفة اللطائف، ص ٣٣)؛ ويبدو أن ابن فهد قد أضاف إلى هذه الرسالة معلومات عن الخبر ابن عباس - رضي الله عنه - بصفته من نزل الطائف وسكن بها، وكذلك معلومات عن أشهر أودية مدينة الطائف الأمر الذي جعله يعيد النظر في عنوان الرسالة، فعتوانها بعد إضافة المعلومات المشار إليها بـ (تحفة اللطائف في فضائل الخبر ابن عباس ووج والطائف)، وهي رسالة مطبوعة قام بتحقيقها كل من محمد سعيد كمال، ومحمد منصور الشقحاء، ونشرها نادي الطائف الأدبي. (ب ت).

(١١) حرصت على إيراد هذا العنوان كما ورد في كتاب حسن القرى بأودية أم القرى، وهو من وجهة نظري العنوان الأصلي أو الصحيح للرسالة التي ألفها جار الله بن فهد عن جده منفردة عن الكتاب المذكور، فإيرادها بهذا العنوان في الكتاب المشار إليه، ووجود نسخة من الرسالة تحمل هذا العنوان، ونسخة أخرى تحمل عنواناً قريباً منه يؤيد ما ذهب إليه. (فضلاً أنظر حاشية رقم (١) ص ٥).

(١٢) السخاوي ، الضوء اللامع ، ٥٢/٣ ؛ الغزي ، الكواكب السائرة ، ١٣١/٢ ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات ، ١٣١/٨ .

(١٣) إبراهيم حمود المشيقح ، جاز الله بن فهد مؤرخاً ، رسالة دكتوراه لم تنشر ، كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ص ٥٥ وما بعدها .

(١٤) حمد الجاسر ، قطر الطائف ومؤرخوه ، ص ٩٧ ، مقالة في مجلة العرب ج ١ ، ٢ السنة الثانية شعبان ورمضان ، سنة ١٣٨٧هـ / يناير وفبراير ١٩٦٧م .

(١٥) السخاوي ، الضوء اللامع ، ٢٢٥/٤ ؛ المشيقح ، جاز الله بن فهد مؤرخاً ، ص ٥٧ .

(١٦) المشيقح ، جاز الله بن فهد مؤرخاً ، ص ٦٠ ، ٦٢ .

(١٧) العيدروس ، النور السافر ، ص ٢٤١ : المشيقح ، جاز الله بن فهد مؤرخاً ، ص ٨٧ - ٨٨ .

(١٨) الشيخ الإمام العلامة أبو عبدالله الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي الدمشقي التركماني الأصل شيخ المحدثين ومؤرخ الإسلام ولد في ربيع الآخر سنة ٦٧٣هـ / أكتوبر ١٢٧٤م وعاش في كنف جده عثمان الذي تفانا في تربيته وتعليمه . طلب العلم صغيراً وتزود من علوم عصره وحفظ القرآن الكريم وأتقن قراءته ولم يبلغ الثانية عشرة . ورغب في أخذ الحديث وعلومه فسمعه صحيح البخاري وبرع فيه فاتجه إلى علم الرجال والتراجم ونبغ فيها . وارتحل في طلب العلم إلى مكة والمدينة ومصر وبلاد الشام وغيرها . وجلس للتعليم وهو ابن ست وعشرين سنة فلفت الأنظار إليه وإلى براعته في العلوم والإلقاء والحفظ توفي ليلة الثالث من ذي القعدة سنة ٧٤٨هـ / مارس ١٣٤٨م .

(الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ١٦٣/٢ ، ١٦٨ ؛ ابن حجر الدرر الكامنة ، ٣٣٦/٣ ، ٣٣٨ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٨٢/١٠ ؛ حسن شمساني ، الحافظ شمس الدين الذهبي ، ص ٤٥ وما بعدها) .

(١٩) ابن خلدون أبوزيد ولي الدين عبدالرحمن بن محمد بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبدالرحيم الحضرمي المغربي المالكي . ولد في تونس غرة رمضان سنة ٧٣٢هـ / ٢٧ مايو سنة ١٣٣٢م حفظ القرآن الكريم مبكراً وأجاد تجويده وقراءته كما درس علوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وتوحيد وعلوم العربية من لغة ونحو وصرف وبلاغة وأدب ، كما درس الفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضية نال إجازات أساتذته بعد نبوغه وبراعته في علوم شتى وعمل في العديد من الوظائف في تونس والأندلس ومصر حتى تفرغ للتأليف فألف عدداً من المؤلفات أبرزها موسوعته التاريخية العبر وديوان المبتدأ والخبر وكذلك مقدمته التي نال بها شهرة عالمية ، توفي في السادس والعشرين من رمضان سنة ٨٠٨هـ - ١٦ مارس ١٤٠٦م .

(ابن حجر ، إنباء الغمر ، ٢٤٣/٢ - ٢٤٨ ؛ السخاوي ، الضوء اللامع ١٤٥/٤ - ١٤٩ ؛ السيوطي ، حسن المحاضرة ١/٤٦٢ ، على عبدالواحد وافي ، عبقریات ابن خلدون ، ص ١٥ وما بعدها) .

(٢٠) القلقشندي أو القرقشندي أحمد بن علي - وقيل عبدالله - بن أحمد بن شهاب الدين الشافعي من بني بدر من فزارة من قيس عيلان ، ولد ببلدة قلقشندة - بمحافظة القليوبية في مصر - ، عام ٧٥٦هـ / ١٣٥٥م ، ونشأ نشأة علمية سليمة وتربى تربية صحيحة نبغ في الفقه والنحو والأدب ، وكتب في الإنشاء وناب عن الحكم له العديد من المؤلفات أهمها موسوعته صبح الأعشى في صناعة الإنشاء . مات يوم السبت العاشر من جمادي الآخرة سنة ٨٢١هـ / ١٤ يوليو ١٤١٨م (المقرئزي ، السلوك ، ٤٧٣/٤ - ٤٧٤ ؛ درر العقود الفريدة ، ٣٦١/٢ - ٣٦٣ ؛

ابن حجر، إنباء الغمر، ١٨/٢ - ١٧٩، السخاوي الضوء اللامع، ٨/٢.

(٢١) انظر ترجمته ص ٢ حاشية (٢).

(٢٢) المقرئ أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد أبو العباس المولود سنة ٧٦٦هـ - ١٣٦٤م بحارة بروجوان بالقاهرة. عمل في ديوان الإنشاء كاتباً ثم عين نائباً للحكم ثم صار إماماً لجامع الحاكم الفاطمي، درس الحديث في المدرسة المؤيدية ثم ولي الحسبة حيث عين محتسباً للقاهرة والوجه البحري ثم عمل بعد ذلك في عدد من الوظائف الحكومية حتى اعتزلها وتفرغ للتأليف فألف أكثر من مائة كتاب في علوم وفنون شتى أبرزها علم التاريخ حيث أصبح من خلال مؤلفاته عمدة مؤرخي مصر الإسلامية. كانت وفاته يوم الخميس السادس والعشرين من رمضان سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤١م.

(السخاوي، الضوء اللامع، ١٢/٢. ١٥؛ الشوكاني، البدر الطالع، ٧٩/١؛ دراسات عن المقرئ، مجموعة بحوث - الهيئة المصرية، ١٩٧٦م).

(٢٣) فضلاً انظر ترجمته في ص (٣). حاشية (١).

(٢٤) فضلاً انظر ترجمته في ص (٣)، حاشية (٢).

(٢٥) السخاوي أبو الخير شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد الشيخ الإمام العالم الحافظ المتقن. ولد في القاهرة في ربيع الأول سنة ٨٣١هـ - ديسمبر ١٤٢٧م حفظ القرآن الكريم وعمدة الأحكام صغيراً كما حفظ من علوم الفقه والنحو على شيخه ابن حجر العسقلاني الذي لازمه أشد ملازمة وكان أكثر الأخذين عنه ولم يفارقه حتى مات.

سمع وقرأ على عدد كبير من علماء مصر والحجاز وأجيز منهم - برع في الحديث والفقه والقراءات له تصانيف في كثير من العلوم في الحديث والفقه والنحو والفرائض والحساب والميقات وأصول الفقه والتفسير. نزل مكة المكرمة والمدينة المنورة التي توفي فيها يوم الجمعة ٣٧ ذو القعدة من سنة ٩٠٢هـ / ٢٦ يوليو ١٤٩٧م.

(السخاوي، الضوء اللامع، ٢١٨، ٢٢؛ ابن العماد الحنبلي شذرات الذهب، ١٥/٨؛ الغزي، الكواكب السائرة، ٥٣/١ - ٥٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ٣٢١/٢؛ العيدروسي، النور السافر، ص ١١، ٢١).

(٢٦) فضلاً انظر جاز الله بن فهد: تحفة اللطائف، ص ٦٥ - ١٢٦.

(٢٧) فضلاً أنظر ص (٢٠).

(٢٨) القول بأن اسم جده - بالفتح - مشتق من وجود قبر حواء الأسطوري في هذه المدينة قول غير صحيح فجدة موجودة قبل نشوء هذه الخرافة، واقرآن التسمية بحواء إنها دعا إليه مجرد قدم الاسمين وورودهما في التوراة مقترنين، فبرد في الطبري عن ابن إسحاق أن أهل التوراة قالوا: «أهبط آدم بالهند وأهبطت حواء بجدة من أرض مكة». والصحيح أن جده - بالضم - مشتق من حد البحر أي شاطئه ولم يعرف عن علماء اللغة ولا من العلماء المتقدمين من قال بأن أسم جده مشتق من حواء التي هي جده الإنس، وأقدم من ذكر هذا هو ابن فهد جد المؤلف ثم نقل عنه حفيده هذا القول.

(حمد الجاسر، جده القديم وسكانها، ص ١١٢، ١١٥، والعرب جـ ١، ٢، السنة ١٧، رجب شعبان

١٤٠٢هـ / مايو، يونيو ١٩٨٢م).

(٢٩) أقدم من ذكر هذا هو ابن المجاور في تاريخ المستبصر ص ٤٣ ثم نقل عنه ابن فهد هذا القول.

(٣٠) الملك الأشرف أبو النصر قانصوه عبد الله الجرسكي أحد سلاطين المماليك الجراكسة تولى السلطنة يوم عيد الفطر سنة ٩٠٦هـ / ١٩ أبريل ١٥٠١م وقتل عنها في الخامس والعشرين من رجب سنة ٩٢٢هـ / ٢٣ أغسطس ١٥١٦م. كان ملكاً مهأباً جليلاً داهية، عرف عنه ظلمه وشدته ومصادراته ووجهه لجمع الأموال.

(الغزي، الكواكب السائرة، ٢٩٤/١، ٢٩٧؛ ابن أبياس، بدائع الزهور، ٨٦/٥، ٩٥).

(٣١) خاير بك - لم أجد له ترجمة فيما رجعت إليه من مصادر - علماً أنه وجد في الدولة المملوكية وفي نفس الفترة أكثر من أمير مملوكي بهذا الاسم.

(٣٢) حسين الكردي : لم أجد له ترجمة فيما رجعت إليه من مصادر، ولكن تشير بعض المصادر التاريخية إلى أنه تولى نيابة جده وعهد إليه قيادة الأسطول المملوكي لطرد البرتغاليين من البحر الأحمر والمحيط الهندي بعد أن كثرت تعدياتهم على المسلمين، كما تشير تلك المصادر إلى سوء سيرته وشدته تعامله وقسوته.

(النهروالي، البرق السامي في الفتح العثماني، ص ١٩، النهروالي الإعلام بأعلام بيت الله الأفخرام، ص ٣٤٥؛ ابن أبياس، بدائع الزهور، ج ٤/٨٥، ١٤٢، ٢٨٦، ٣٠٨/ج ٥/ ص ٩٠، ١٩٠؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب ١١٥/٨).

(٣٣) فضلاً أنظر ص (٢٧).

(٣٤) جاز الله بن فهد، تحفة اللطائف، ص ٢٤١؛ حسن القرى، مخطوط، ورقة ٢٥.

(٣٥) جاز الله بن فهد، تحفة اللطائف، ص ٣٤؛ الجواهر الحسان، مخطوط، ورقة ٤.

(٣٦) جاز الله بن فهد، تحفة اللطائف، ص ١٥١ وما بعدها؛ الجواهر الحسان، ورقة ٩٦، ١٠٨؛ حسن القرى، ورقة ٣٢، ٤١، ٤٣.

(٣٧) جاز الله بن فهد، الجواهر الحسان، ورقة ٩٤، ٩٧.

(٣٨) فضلاً : انظر على سبيل المثال : ابن عراق : نشر اللطائف ص ٦٠، ٩٢ الجزيري . درر الفرائد المنتظمة، ص ٨٠٤، ٨٠٥؛ ابن فرج : السلاح والعدة ص ٣٩، ٤٤؛ ابن علان : طيف الطائف، ص ٥، ١٧، ٢١، ٢٨؛ الطبري : الأراج المسكي ص ١٠، ١٣؛ العجمي : إهداء اللطائف، ص ٣٧، ٦١؛ القاري : مقدمة رسالته في تاريخ الطائف.

(٣٩) أي الفاسي، فضلاً أنظر الفاسي : شفاء الغرام ج ١، ص ١٤٠.

(٤٠) هو محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي (المتوفى سنة ٢٨٠هـ / ٨٩٣م)، مؤلف «أخبار مكة» وهو كتاب حسن جداً لكثرة ما فيه من الفوائد النفيسة وفيه غنية عن كتاب الأزرقى، (الفاسي، العقد الثمين ١/ ٤١٠ - ٤١١)، هذا وقد قام الدكتور عبد الملك بن دهيش بتحقيق الكتاب ونشره في طبعته الأولى عام ١٤٠٧هـ، والثانية ١٤١٤هـ.

(٤١) هو عمر بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمر بن العاص السهمي، روى عن أبيه وجماعة، وروى عنه عطاء وابن جرير وابن إسحاق وآخرون، قال البخاري : رأيت أحمد بن حنبل وعامة أصحابنا يتحدثون بحديث عمر بن شعيب، ما تركه أحد من المسلمين - مات سنة ١١٨هـ / ٧٣٦م، (خليفة بن خياط، الطبقات ص ٢٨٦).

(٤٢) حديث ضعيف وليس حديثاً مرفوع السند، ويبدو أن الأمر قد التبس على الفاكهي أو غيره في هذا، ويوحى بهذا اللبس قول ابن جرير التالي «مكة رباط وجدة جهاد».

- (٤٣) هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج أبو الوليد المكي، قال عبدالله بن أحمد «قلت لأبي: من أول من صنف الكتب؟ قال: ابن جريج وابن أبي عروبة»، مات سنة ١٤٩هـ / ٧٦٦م (ابن خلكان، وفيات الأعيان ٣٥٩/١، ابن حجر، تهذيب التهذيب ٢٠٢/٦، ٢٠٥).
- (٤٤) هو عطاء بن أبي رباح أبو محمد المكي، انتهت إليه فتوى أهل مكة في زمانه، كان ثقة فقيهاً عالماً كثير الحديث، توفي سنة ١١٤هـ / ٧٣٢م. (ابن خياط، الطبقات، ص ٢٨٠؛ الفاسي، العقد الثمين ٨٤/٦).
- (٤٥) صيغ هذا الاسم في المصادر الأخرى بصيغ مختلفة، فقد ذكر في شفاء الغرام للفاسي باسم (صفو بن فجر)، وفي الجواهر المعدة للحضراوي (ضوء بن فجر)، وفي الجواهر المعدة للحضراوي (ضوء بن فجر)، وفي السلاح والعدة لابن فرج (ضوء بن فجر).
- (٤٦) عباد بن كثير الثقفي البصري أحد المجاورين بمكة، قال العجلي: ضعيف متروك الحديث، كان رجلاً صالحاً، (الفاسي، العقد الثمين ٩٠/٥؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب ١٠٢/٥).
- (٤٧) في الأصل (عن) والمثبت في: ابن فرج: السلاح والعدة، ص ٤٢؛ الحضراوي: الجواهر المعدة، ج ٧، ٨، ص ٥٤٣.
- (٤٨) كذا في الأصل، وفي الجواهر المعدة، للحضراوي (ج ٧، ص ٨، ٥٤٣)، (بشرة ألف صلاة)؛ وفي السلاح والعدة لابن فرج (ص ٤٢) بسبع عشرة ألف صلاة) وهو الأصح في نظري.
- (٤٩) ذكر ذلك ابن ظهيرة في الجامع اللطيف، ص ٨١؛ وابن فرج، السلاح والعدة، ص ٤٢؛ والحضراوي الجواهر المعدة، ج ٧، ٨، ص ٥٤٣، وما ذكر عن الصلاة والصدقة وغيرهما من الأعمال في جده ليس له سند شرعي يؤيده.
- (٥٠) هو عبدالله بن سعيد بن عبد الملك بن مروان نزيل مكة، محدث (الذهبي، ميزان الاعتدال، ٤٢٩/٢؛ الفاسي، العقد الثمين ١٦٩/٥).
- (٥١) هو فرقد بن يعقوب السبخي - نسبة إلى سبخة كان يأوي إليها - من أهل أرمينية، انتقل إلى البصرة وسكنها، كان حائكاً من عبّاد أهل البصرة وقرائهم، مات سنة ١٣١هـ / ٧٤٨م (السمعاني، الأنساب ٢٨/٧؛ الذهبي، ميزان الاعتدال ٣٤٥/٣).
- (٥٢) في الأصل (هذا الكتاب والكتب) والمثبت في الفاسي: شفاء الغرام (١٤١/١)؛ وابن ظهيرة الجامعة اللطيف (ص ٨١).
- (٥٣) كذا في الأصل، وهو يوافق ما في الفاسي، شفاء الغرام (١٤١/١)؛ وفي الجامع اللطيف (ص ٨٢)؛ والسلاح والعدة (ص ٤٢)؛ والجواهر المعدة (ج ٧، ٨/٥٤٣) (لا شهداء).
- (٥٤) يفهم من هذا النص أن جده لم تكن شاطيء مكة قبل هذا التاريخ، والواقع غير ذلك حيث دلت عدة نصوص تاريخية على استخدام جده شاطئاً لمكة، ففي السيرة النبوية لابن هشام (ج ١ ص ١٩٣) يرد أن قريشاً عندما أرادوا بناء الكعبة نقلوا أخشاباً من سفينة للروم كانت غارقة في جُدة، كما جاء في نفس المصدر أنه في سنة ثمان للهجرة خرج صفوان بن أمية من مكة إلى جدة ليركب منها إلى اليمن (ابن هشام، السيرة النبوية ١٩٣/١ وياقوت، معجم البلدان ١١٤/٢ وحمد الجاسر، جده القديمة وسكانها ص ١١٦).
- (٥٥) التكملة من شفاء الغرام ١٤١/١.

(٥٦) الشعبية، تبعد عن مكة بحوالي ٦٨ كيلاً على ساحل البحر كانت قرية صغيرة على طريق اليمن (عائق البلادي، المعجم، ص ٧٤) وهي الآن شاطئ مكة المكرمة ومنتزه أهلها البحري، أقيم فيها محطة ضخمة لتحلية مياه البحر كما أقيم فيها محطة لتوليد الطاقة الكهربائية.

(٥٧) الفاسي، شفاء الغرام ١/١٤١.

(٥٨) ابن جبير هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكتاني الأندلسي - الرحالة المعروف كان مولده عام ٥٤٠هـ وبرع في الأدب وخصوصاً الشعر وأولع في التنقل والترحال، بدأ رحلته يوم الاثنين ١٩ شوال ٥٧٨هـ / ٣ فبراير ١١٨٢م، وانتهى بها يوم الخميس ٢٢ محرم ٥٨١هـ / ٢٥ أبريل ١١٨٥م، زار خلالها مصر والحجاز والشام والعراق، وتوفي في أثناء رحلته الثالثة بالاسكندرية سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م.

(الرحلة، ص ٦٠٥؛ ابن العماد، شذرات الذهب ٦٠/٥ - ٦١؛ الزركلي، الاعلام ٣١٩/٥).

(٥٩) ابن جبير الرحلة، ص ٥٠.

(٦٠) معروف في عصر المؤلف، وهو غير معروف في وقتنا الحاضر (عائق البلادي، المعجم، ص ٤٥).

(٦١) هو يوسف بن عمر بن علي بن رسول، صاحب اليمن وثاني ملوك بني رسول بها وأول من كسا الكعبة منهم له شهرة واسعة في التأليف والتصنيف، توفي سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م.

(القاسمي؛ العقد الثمين ٧/٤٨٨؛ الخزرجي، العقود للؤلؤة ١/٨٥، ٨٨؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب ٥/٤٢٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ٨/٧١).

(٦٢) الفاسي: شفاء الغرام ١/١٤١.

(٦٣) أي في زمن ابن فهد.

(٦٤) كلمة فارسية معناها السيد بالعربية، وكانت تطلق على التجار وقتئذ بصفة خاصة.

(٦٥) أشار ابن فرج (ص ٦٨) إلى أنه يسمى الدامغاني - نسبة إلى دامغان محلة بين الري ونيسابور، كما يسمى الشيرازي عند ابن فهد والشيرواني عند ابن فرج، وكأن مقصودهما واحد خصوصاً وأنها اتفقا على موقع المسجد وأنه بساحل البحر، كما اتفقا على نسبة تسميته إلى أحد المنتسبين إلى بلاد ما وراء النهر أو بلاد فارس، ولكن حدث تحريف للاسم عند أحدهما، وأرجح أنه من عند ابن فرج الذي لم يورد الاسم كاملاً، كما أنه الناقل عن ابن فهد مع احتمال خطأ النقل أو تغير الاسم وتحريفه بعد ابن فهد.

(٦٦) الموسم الهندي: مصطلح يطلق على فترة قدوم السفن من الهند إلى ميناء جدة محملة بالبضائع الشرقية (نوال ششه: جدة في مطلع القرن العاشر الهجري، ص ٩٦).

(٦٧) الفرضة من البحر: محط السفن ومكان وقوفها، المعجم الوسيط (مادة فرض).

(٦٨) لم يرد اسماً واضحاً لهذا المسجد - ولكن يطلق عليه اسم جامع الفرضة - وقد بناء الأمير حسين الكردي نائب جدة في أثناء بناء لسور جدة والفرضة السلطانية بجوار دار النيابة.

(٦٩) شفاء الغرام، ١/١٤٢، وانظر: تاريخ مكة للفاكهي - تحقيق ونشر الدكتور عبد الملك بن دهيش الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.

(٧٠) ابن جبير: الرحلة ص ٥٠.

(٧١) الفاسي: شفاء الغرام ١/١٤٢.

- (٧٢) نفسه، نفس الجزء والصفحة.
- (٧٣) فضلاً انظر ص (١٠)، حاشية رقم (٢).
- (٧٤) في الأصل عز الدين وصوابه في ابن خلكان: وفیات الأعيان ١٤١/٤.
- (٧٥) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث ٢٤٥/١؛ وورد في معجم البلدان ١١٤/٢، بتصرف: «قال أبوالمنذر، ويجدة ولد جدّة بن حزام بن ريان بن حلوان بن عمرو بن الحاف بن قضاة فسمى جدّه باسم الموضع ولما تفرقت الأمم صار لعمر بن معد بن عدنان جدّه وشاطيء البحر وما دونها إلى منتهى ذات عرق إلى حيز البحر من السهل والجبل، فزولوا وانتشروا فيها وكثروا» ويقول أبوعبيد البكري (المعجم ١٣٢/٢): «سميت بذلك لأنها حاضرة البحر، وجدة من البحر والنها وما ولي البر وأصل الجدة الطريق الممتدة».
- (٧٦) في الأصل (وأسكنها سلمان الفارسي وأهاليه)، والمثبت في الحضراوي: الجواهر المدة ج ٥، ص ٦، ٤١٤، وهو ينقل عن جابر الله بن فهد.
- (٧٧) فضلاً انظر ابن الجاور؛ تاريخ المستبصر، ص ٤٢.
- (٧٨) وردت هذه الأسماء محرفة في الأصل، وقد اعتمدت في تصويبها على ما جاء في بحث بعنوان حول مدينة جدة لحمد الجاسر، العرب ج ٣، ٤، السنة الخامسة عشرة ص ٢٣٦.
- (٧٩) من هنا إلى قوله: «الأمير داود بن هاشم الحسيني» منظور فيه إلى ابن الجاور: تاريخ المستبصر، ص ٤٣، ٤٦.
- (٨٠) ينفي الحضراوي في الجواهر المدة (ج ٥، ص ٦، ٤١٤)، هذا الزعم وأنه لا أساس له، ويشير إلى أن الأعراب هم أول من سكن جدة في القديم.
- (٨١) لم يعد معروفاً الآن (البلادي، المعجم ١٧٠) ويشير ابن فرج (السلح والعدة، ص ٤٤) إلى أنه جهة الشلم، ولعله باب جديد الآن، والدومة يبدو أنه نسبة إلى شجرة دوم كانت موجودة بجواره وشجر الدوم معروف بإقليم الحجاز وهو يشبه النخل له ثمر أسود شديد الصلابة.
- (٨٢) لم يعد معروفاً الآن (البلادي، المعجم ١٧١/١)، ويشير ابن فرج (السلح والعدة، ص ٤٤) إلى أنه جهة اليمن، ولعله باب شريف الآن، والنسبة قد تكون لوجود مدينة لديغ الجلود بجواره قسب إليها.
- (٨٣) هذه من الحرافات والشائعات التي انتشرت في عصر المؤلف، وكانت تمثل مع غيرها من الحرافات والاعتقادات مظهراً دينياً واجتماعياً ساد بوضوح في أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي عامة وشبه الجزيرة خاصة قبل الدعوة الإصلاحية التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.
- (٨٤) أحد الأبواب الرئيسة لجدة مما يلي مكة المكرمة لذا سمي باب مكة، وهو الآن مركز تجاري ضخم، ولقد عرفت جدة عدة أبواب كان لها شهرتها في تاريخ جدة هي:
- باب مكة وهو الباب الذي كان يخرج منه إلى مكة المكرمة وكانت تؤخذ فيه المكوس على البضائع الواردة إلى مكة عن طريق جدة.
- باب جديد، كان باباً في سور جدة يخرج منه شمالاً ولا يزال معروفاً حتى اليوم بهذا الاسم.
- باب شريف، كان باباً في سور جدة منه لليمن مقابلاً لباب جديد (البلادي، المعجم ١٩٦١/١، ٧١).
- (٨٥) هو داود بن عيسى بن فليتة الحسيني المكي، ولي أمر مكة بعد أبيه بعهد منه سنة ٥٧٠هـ، وكانت وفاته سنة ٥٨٩هـ. (القاسي، العقد الثمين ٣٥٤/٤؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ٢٩٧/٤).

- (٨٦) هذا الخبر منظور فيه إلى ابن جبير، الرحلة ص ٥٠.
- (٨٧) الجب: البئر الواسعة، والجمع أجباب (المعجم الوسيط، مادة جب).
- (٨٨) في الأصل (الكاسور)، والكاشور - بالشين المعجمة - حجر الكلس الذي كانت جدة إلى ما قبل عشر سنين تبنى به، وهو الحجر الرملي المستخرج من باطن أرضها، والمعروف عند أهلها باسم (الحجر النقي) لأنه ينقب عنه.
- (عبد القدوس الأنصاري: موسوعة تاريخ مدينة جدة ٣٢/١).
- (٨٩) مقصود المؤلف هنا أنه يأتي إلى جدة أيام الموسم الهندي أمير مملوكي ترسله الدولة في هذا الوقت بالذات وتكون مهمته فقط جمع الرسوم الجمركية وقد أطلق عليه لقب الناظر ويتبعه عدد من المباشرين المسؤولين عن تحصيل الضرائب الجمركية، فضلاً عنظر الحاشية التالية.
- (٩٠) كانت القاعدة في الرسوم الجمركية على البضائع الواردة إلى جدة هي العشر على التجار المسلمين، والخمس على غيرهم، وفي ظل السياسات الضريبية لبعض سلاطين المماليك الجراكسة زادت هذه الرسوم عن خمسة عشر بالمئة فتضرر التجار من جراء ذلك، وامتنعوا من القدوم إلى جدة مما اضطر سلاطين المماليك إلى التخفيف عنهم والاكتفاء بتحصيل قيمة العشر فقط.
- وكان للأشراف في مكة قبل عصر المماليك الجراكسة حق جباية الضرائب لصالحهم من التجار الذين يردون إلى ميناء جدة وعند استحداث وظيفة نظارة جدة من قبل سلاطين المماليك سنة ٨٢٨هـ / ١٤٢٥م كلف متوليها بتحصيل الضرائب الجمركية على البضائع الواردة إلى جدة، وكان مجموعها ذلك العام حوالي سبعين ألف دينار ثم بعد ذلك نظمت التحصيلات المالية بين المماليك وأشراف الحجاز، الذين اختصوا بتحصيل الرسوم على التجارة البرية الواردة إلى الحجاز من اليمن والعراق والشام وغيرها، أما سلاطين المماليك فاختصوا بتحصيل الرسوم على التجارة البحرية، وكان عام ٨٣٨هـ / ١٤٢٥م أول عام يتم فيه تطبيق هذه التنظيمات الضريبية التي قررها سلاطين المماليك وبالأخص السلطان المملوكي الأشرف برسباي (٨٢٥ - ٨٤١هـ / ١٤٢٢ - ١٤٣٨م). (محمد أمين صالح، تجارة البحر الأحمر في عهد المماليك الجراكسة، ص ١٣٥ - ١٣٦، مجلة الدارة، العدد الثاني السنة السادسة ربيع الأول ١٤٠١هـ / يناير ١٩٨١م ص ١٢٥ - ١٤٦).
- (٩١) الجلاب: جمع جلبه وهي من سفن البحر الأحمر التي كانت تستخدم في نقل الناس والبضائع (ابن جبير، الرحلة، ص ٤٢، ٤٤، ٥٣؛ المقرئ، المواعظ والاعتبار ٢٠٣/١).
- (٩٢) الإمام الحجة نجم الدين محمد بن يعقوب المالكي قاضي قضاة الحرمين الشريفين عاش في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري (لم أجد له ترجمة فيها رجعت إليه من مصادر).
- (٩٣) المعروف أنه ليس آخر ملوك الجراكسة بل حكم بعده السلطان طومان باي في الفترة (من ١٤ رمضان ٩٢٢هـ وحتى ربيع الأول سنة ٩٢٣هـ / أكتوبر ١٥١٦م - أبريل ١٥١٧م) فكان السلطان السابع والأربعون من سلاطين المماليك والحادي والعشرون من سلاطين الجراكسة (ابن إياس، بدائع الزهور ١٠٢/٥).
- (٩٤) في الأصل (الذين).
- (٩٥) يحصر ابن فريج (السلاح والعدة، ص ٥٠، ٥٢) سبب أمر السلطان الأشرف قانصوه الغوري ببناء هذا السور في هجمات الأعراب وغاراتهم على جدة وفسادهم في نواحيها ونهبهم مكة وجدة وذلك عام ٩٠٨هـ ومركزهم في

ينبع ، وكانوا تحت زعامة وقيادة هزاع بن محمد بن بركات الذي كان ينافس أخاه أمير مكة في ذلك الوقت بركات بن محمد بن بركات .

والواقع أن السبب الأكثر خطورة كان يتمثل بالتهديد البرتغالي ، فقد عمد الأمير حسين الكردي إلى تحصين جدة بأمر من السلطان الغوري حتى تستطيع الصمود في وجه المحاولات البرتغالية المتكررة لمهاجمتها ، ولقد بدء في بناء السور سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٩م وتم الانتهاء منه سنة ٩١٦هـ / ١٥١١م ، لمزيد من التفاصيل عن ذلك ، وعن هجمات الأعراب فضلاً انظر : (النهر والي ، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، ص ٣٤٥ ؛ سعد زغلول عبد ربه ، البرتغاليون والبحر الأحمر ، ص ١١٣ ، مجلة الدارة ، العدد الثاني السنة السادسة ربيع الأول ١٤٠١هـ / يناير ١٩٨١م ص ١٠٨ ، ١٢٤) .

(٩٦) لم يتعرض ابن فهد إلى تقدير طول الذراع هنا ، وقد أشار إليه ابن فرج (السلاح والعدة ، ص ٥٥) حيث نص على أن هذا الذراع هو ذراع العمل وأضاف أنه أي ذراع العمل يساوي ذراعاً ونصف بذراع التجاري ، وقد تبين أن ذراع التجاري التي أشار إليه ابن فرج تبلغ نحو (٧٧،٥ سم) ، فتكون ذراع العمل التي قدر بها ابن فهد أبعاد سور جدة هي : $٧٧,٥ \text{ سم} \times ١,٥ = ١١٦,٢٥ \text{ سم}$ أي أن طول السور من جهة اليمين هي : $١١٦,٢٥ \times ٨٠٠ \text{ سم} = ٩٣,٠٠٠ \text{ سم}$ أي (٩٣٠ متراً) .

(٩٧) يبدو أنه الباب الجنوبي وأن المقصود به باب شريف الآن فهو الذي يُخرج منه إلى اليمن .
(٩٨) أي $٦٠٠ \text{ ذراع} \times ١١٦,٢٥ = ٦٩,٧٥٠ \text{ سم}$ وتعادل $٦٩٧,٥ \text{ م}$ ونصل بهذه العملية الحسابية البسيطة إلى إجمالي المساحة التقريبية لجدة في تلك الفترة فتبلغ أكثر من (سنة ونصف كيل مربع) أخذاً بالاعتبار أن طولها على البحر كان ألفاً وأربعمائة ذراع .

(٩٩) يبدو أنه الباب الشامي وأن المقصود به باب جديد الآن فهو لمن أراد الخروج من جدة باتجاه الشمال .

(١٠٠) الشرافة : زوائد توضع في أطراف الشيء تحلية له (المعجم الوسيط ؛ مادة شرف) .

(١٠١) أي أن عرض الجدار $= ٣ \times ١١٦,٢٥ = ٣٤٨,٧٥ \text{ سم}$ أي (٤٨ سم و ٣) .

وارتفاعه $= ١٠ \times ١١٦,٢٥ = ١١٦١,٥ \text{ سم}$ أي (٦٢ سم و ١١ م) .

(١٠٢) في الأصل (وعرض) .

(١٠٣) في الأصل (كل من الباب) .

(١٠٤) باش مكة أو باشا الترك وظيفة استحدثت سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م استحدثها السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقداري ليكون متوليها نائباً له في مكة يرجع إليه أشرف مكة في المهمات ويكون الحل والعقد على يديه ، وكان أول من تولاه هو شمس الدين مروان ، واستمرت حتى أبطلها العثمانيون عند امتداد نفوذهم على الحرمين الشريفين . (فائق بكر الصواف ، مصطفى محمد رمضان ، أهمية ثغر جدة في النصف الأول من القرن العاشر الهجري ، ص ٢٠٠) .

(١٠٥) في الأصل : (ينحل فيها) .

(١٠٦) أطلق على هذا المكان اسم فرضة السلطان - أي السلطان المملوكي - ثم أطلق عليه اسم دار النيابة ، وذلك بعد أن أقيم عليه دار لسكنى نائب جدة .

(ابن فرج ، السلاح والعدة ، ص ٥٧ ؛ الصواف ، رمضان ، أهمية ثغر جدة ، ص ٢٢٣ ، حاشية رقم (١٥) .

(١٠٧) في الأصل : (معشر).

(١٠٨) فضلاً انظر حاشية رقم (١)، وحاشية رقم (٢) ص (٢٣).

(١٠٩) المقصود هنا بالفرنجة هم البرتغاليون، ففي بداية القرن العاشر الهجري تعرضت المنطقة وخاصة ميناء جدة لهجوم البرتغاليين في عدة محاولات منهم للنيل منه والسيطرة عليه أو تخريبه، وهذا ما دعى حكام الماليك بصفتهم مسؤولين عن الحرمين الشريفين وحمايتهما إلى إقامة التحصينات اللازمة لحماية بوابتهما وهي جدة لأن حمايتها حماية حكمهم ونفوذهم وحماية لقدسية المنطقة وخصوصاً مكة، لذا فقد تحطمت آمال البرتغاليين أمام تلك التحصينات التي جعلت من جدة ثغراً عسكرياً قوياً.

لمزيد من التفصيل عن محاولات البرتغاليين مهاجمة جدة والسيطرة عليه فضلاً انظر:

- سعد زغلول عبدره، البرتغاليون والبحر الأحمر، ص ١١٤، ١١٨.

- الصواف، رمضان، أهمية ثغر جدة، ص ٢١٥.

- غسان الرمال، صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر، جدة، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٥م.

- محمد عبدالعال أحمد، البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه، الاسكندرية، ١٩٨٠م.

(١١٠) المقصود بالعدي هي التجارية البرية بين مكة واليمن وسميت بذلك تمييزاً لها عن التجارة البحرية التي كان يطلق عليها اسم الهندي، وأضيف إلى العدي تلك التجارة الواردة من جهات أخرى عن طريق اليمن كالبيضاع والسلع المنجوبة من صعيد مصر عبر الطريق التجاري الذي يربط قوص بعيذاب ثم إلى اليمن ومنها برأ إلى اقليم الحجاز.

(١١١) مما يؤسف له أن هذا الكتاب من الكتب المفقودة، وقد تعددت الإحالة إليه مرات عدة في مؤلفات ابن فهد، ويبدو من هذه الإحالات أنه ذو قيمة مهمة ويحتوي على معلومات غزيرة ودقيقة.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

- * ابن الأثير: المبارك بن محمد الجزري (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م).
- النهاية في غريب الحديث، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة ١٩٦٣ م.
- * ابن إياس: أبو البركات محمد بن أحمد (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م).
- بدائع الزهور في وقائع الدهور، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة ١٩٦٠ م - ١٩٦٣ م.
- * ابن تغري بردي: أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠ م).
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م.
- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي (ج ١)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٣٧٥ هـ / ١٩٦٥ م.
- الدليل الشافي على المنهل الصافي، نشر جامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م.
- * ابن جبير: محمد بن أحمد الكناني (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م).
- رحلة ابن جبر، القاهرة ١٩٥٥ م.
- * ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٣ هـ / ١٤٤٨ م).
- تهذيب التهذيب - حيدر آباد، الهند ١٣٢٥ هـ.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، مطبعة المدني، ط الثانية، القاهرة ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٦ م.
- إنشاء الغمر بأبناء العمر، مطابع الأهرام، القاهرة ١٣٨٩ هـ.
- * ابن خلكان: شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م).
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، بيروت ١٩٦٨ م.

- * ابن خياط : أبو عمر خليفة بن خياط بن هبيرة (ت ٢٤٠هـ / ٨٥٤م).
- كتاب الطبقات، دار طيبة، المدينة المنورة، ط الثانية، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- * ابن ظهيرة: جمال الدين محمد بن جبار الله بن محمد (ت ٩٨٦هـ / ١٥٥٦م).
- الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، القاهرة ١٩٣٨م.
- * ابن عراق: علي بن محمد (ت ٩٦٣هـ / ١٥٥٦م).
- نشر اللطائف في قطر الطائف، مطبوعات نادي الطائف الأدبي، الطائف ١٤٠٦هـ.
- * ابن علان: محمد بن علي بن محمد (ت ١٠٥٧هـ / ١٦٤٧م).
- طيف الطائف في فضل الطائف، مخطوط بمكتبة الحرم المكي رقم ٣٥١٠.
- * ابن العماد الحنبلي: عبدالحى بن العماد (ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م).
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة ١٣٥٠هـ.
- * ابن فرج: عبدالقادر بن أحمد الشافعي (ت ١٠١٠هـ / ١٦٠١م).
- السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة، ط الأولى، دار الحداثة، بيروت ١٩٨٣م.
- * ابن فهد: جبار الله محمد بن عبدالعزيز (ت ٩٥٤هـ / ١٥٤٧م).
- تحفة اللطائف في فضائل الخبر ابن عباس ووج والطائف ط. الأولى، نادي الطائف الأدبي، الطائف (ب ت).
- الجواهر الحسان في مناقب السلطان سليمان، مخطوط، نسخة مصورة عن نسخة جامعة استانبول رقم ٣٦٠ تاريخ.
- حسن القرى في أدوية أم القرى، مخطوط في معهد البحوث وإحياء التراث الإسلامي، في جامعة أم القرى رقم (١٧٠) تاريخ.
- * ابن المجاور: جمال الدين يوسف بن يعقوب (ت بعد ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م).
- تاريخ المستبصر، ليدن ١٩٥١م.
- * ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري (ت ٧١١هـ / ١٣١١هـ).
- لسان العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة (ب ت).
- * البكري: أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز (ت ٤٩٦هـ / ١١٠٢م).
- معجم ما استعجم، القاهرة ١٩٤٥م.

- * الجزيري: عبدالقادر بن محمد (ت بعد ١٥٧٦ / ١٥٦٨م).
- الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، القاهرة ١٣٨٤هـ.
- * الخزرجي: أبو الحسن علي بن الحسن (ت ٨١٢هـ / ١٤٠٩هـ).
- العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، القاهرة ١٩١١م.
- * الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م).
- ميزان الاعتدال، القاهرة، ١٩٦٣م.
- * السخاوي: شمس الدين محمد بن عبدالرحمن (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م).
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، القاهرة، ١٣٥٣هـ.
- * السمعاني: عبدالكريم بن محمد (ت ٥٦٢هـ / ١١٦٦م).
- الأنساب، بيروت، ١٩٨٠م.
- * السيوطي: جلال الدين عبدالرحمن (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م).
- طبقات الحفاظ، الطبعة الأولى، مكتبة وهبة، القاهرة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.
- ذيل طبقات الحفاظ، القاهرة، ١٣٤٨هـ / ١٩٢٩م.
- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ط الأولى، القاهرة ١٩٦٧م.
- * الشوكاني: محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م).
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ط. الأولى، مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٤٨هـ.
- * الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م).
- الوافي بالوفيات، دار صادر، بيروت ١٩٦٢ - ١٩٧١م.
- * الصيرفي: علي بن داود (ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٤هـ).
- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٧٠م.
- * الطبري: محي الدين عبدالقادر (ت ١٠٧٠هـ / ١٦٦٠م).
الأرج المسكي في التاريخ المكي، مخطوط بمكتبة الحرم المكي الشريف رقم ٣٤٢٦.
- * العجيمي: حسن بن علي بن يحيى (ت ١١١٣هـ / ١٧٠١م).

- إهداء اللطائف من أخبار الطائف، دار ثقيف، الطائف ١٤٠٦هـ.
- * العيدروسي: عبدالقادر بن شيخ بن عبدالله (ت ١٠٣٨هـ / ١٦٤٨م).
- النور السافر عن أخبار القرن العاشر، المكتبة العربية، بغداد ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م.
- * العيني: بدر الدين محمود بن أحمد (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م).
- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (حوادث سنة ٨١٥ - ٨٢٣هـ)، ط الأولى، مطبعة علاء، القاهرة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م.
- * الغزي: نجم الدين محمد بن محمد (ت ١٠٦١هـ / ١٦٥١م).
- الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، بيروت ١٩٤٥م.
- * الفاسي: تقي الدين محمد بن أحمد بن علي (ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٩م).
- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، بيروت ١٩٨٥م.
- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، القاهرة ١٩٦٠م.
- * المقرئ: تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م).
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مؤسسة الحلبي، القاهرة ١٢٧٠هـ.
- درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، ط الأولى، عالم الكتب، بيروت ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك، ق ٤، القاهرة ١٩٧٠ - ١٩٧٢م.
- * النهروالي: محمد بن أحمد المكي (ت ٩٩٠هـ / ١٨٥٢م).
- البرق اليماني في الفتح العثماني، دار اليمامة، الرياض ١٩٦٧م.
- الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، لا يبيزج ١٨٥٧م.
- * ياقوت الحموي: شهاب الدين ياقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م).
- معجم البلدان، دار صادر، بيروت (ب ت).

ثانياً: المراجع :

- * إبراهيم بن حمود المشيقح :
- جار الله بن فهد مؤرخاً رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، قسم التاريخ، الرياض ١٤١٣هـ.

* الحضراوي: أحمد بن محمد بن أحمد:

- الجواهر المعدة في فضائل جدة - تحقيق حمد الجاسر، مجلة العرب الأجزاء من ٥ - ١٢ السنة الثالثة عشرة، ١٣٩٨هـ - ١٣٩٩م.

* حسن شمساني:

- الحافظ شمس الدين الذهبي، ط الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١١هـ / ١٩٩٠م.

* حمد الجاسر:

- قطر الطائف ومؤرخوه، مجلة العرب، ج ١، ٢ السنة الثانية شعبان، رمضان ١٣٨٧هـ / يناير فبراير ١٩٦٧م.

- حول مدينة جدة، العرب، ج ٣، ٤ السنة الخامسة عشرة رمضان، شوال ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

- جدة القديمة وسكانها، العرب ج ١، ٢ السنة السابعة عشرة، رجب، شعبان ١٤٠٢هـ / مايو، يونيو ١٩٨٢م.

- مقدمة كتاب معجم الشيوخ (الدراسة) منشورات دار اليمامة، الرياض ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

* عاتق بن غيث البلادي:

- معجم معالم الحجاز، ط الأولى، دار مكة للنشر والتوزيع مكة المكرمة، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

* عبدالحفيظ بن عثمان القاري:

- رسالة في تاريخ الطائف، مخطوط بمكتبة الحرم المكي، رقم ٣٤٨٩.

* عبدالقدوس الأنصاري:

- موسوعة تاريخ مدينة جدة - ط ٣ - دار معد للطباعة، القاهرة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

* عبداللطيف حمزة:

- القلقشندي في كتابه صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٧م.

- * علي بن حسين سليمان الناصر:
- النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية أواخر العصور الوسطى ط الأولى،
مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.
- * علي عبدالواحد وافي:
- عبقریات ابن خلدون، عالم الكتب، القاهرة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.
- * سعد زغلول عبدربه:
- البرتغاليون والبحر الأحمر، مجلة الدارة، العدد الثاني، السنة السادسة، ربيع
الأول ١٤٠١هـ / يناير ١٩٨١م (ص ١٠٨، ١٢٤).
- * فائق بكر الصواف، مصطفى محمد رمضان:
- أهمية ثغر جدة في النصف الأول من القرن العاشر الهجري، الدارة العدد
الثاني، السنة السادسة، ربيع الأولى ١٤٠١هـ / يناير ١٩٨١م (ص ١٩٩،
٢٢٥).
- * محمد أمين صالح:
- تجارة البحر الأحمر، في عصر المماليك الجراكسة، الدارة، العدد الثاني، السنة
السادسة ربيع الأولى ١٤٠١هـ / يناير ١٩٨١م، (ص ١٢٥ - ١٤٦).
- * نوال سراج ششة:
- جدة في مطلع القرن العاشر الهجري، مكة المكرمة ١٩٨٦م.
- * مجموعة مؤلفين:
- دراسات عن المقرئزي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦م.
- * مجمع اللغة العربية:
- المعجم الوسيط، مطبعة مصر، القاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م.